مركز المسبار للدراسات والبحوث
Al Mesbar Studies & Research Centre

الإسلام في أوروبا

إشكاليات الاندماج وتحديات الإرهاب

الكتاب 112 أبريل (نيسان) 2016
كتاب شهري يصدر عن مركز المسبار للدراسات والبحوث

الإسلام في أوروبا
إشكاليات الاندماج وتحديات الإرهاب

يأتي هذا الكتاب في ضوء حدثين إرهابيين شكلا صدمة للرأي العام العالمي: الأول: الأحداث الإرهابية التي تعرضت لها باريس، والثاني: هجمات بروكسل عاصمة الاتحاد الأوروبي، وما نتج عنهما من سقوط عدد لا يستهان به من الضحايا.

أصبح فهم المسلمين في أوروبا أمراً ملحاً من أجل تحقيق اندماجٍ اقتصادي وسياسي وثقافي في المجتمعات الأوروبية، يقترن بتطوير خطاب ديني عقلاني تنويري، يؤسس لتصور مستنير حول الإسلام. من المهم أن تُقدِم الحكومات الأوروبية على توفير الآليات الناجعة لبناء المواطنة الكاملة لأبناء المهاجرين، عبر تحسين ظروف حياتهم الاجتماعية، وتأمين سبل الانخراط السياسي بشكل يمكنهم من الانضواء في الأطياف السياسية الأوروبية.

المسبار
الكتاب الثاني عشر بعد المئة
أبريل (نيسان) 2016
كتاب شهري يصدر عن مركز المسبار للدراسات والبحوث
www.almesbar.net
ISBN 978-9948-02-333-3

الكتاب: كتاب المسبار الشهري - الكتاب الثاني عشر بعد المئة
الإسلام في أوروبا
إشكاليات الاندماج وتحديات الإرهاب

المؤلف: مجموعة باحثين
الناشر: **مركز المسبار للدراسات والبحوث**
الطبعة الأولى، أبريل (نيسان) 2016
الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: ISBN 978-9948-02-333-3
رقم الموافقة على الطباعة: 118636

طبعت في مطابع المتحدة للطباعة والنشر United Printing & Publishing

جميع حقوق الطبع وإعادة الطبع والنشر والتوزيع محفوظة لمركز المسبار للدراسات والبحوث.
لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من مركز المسبار.
الدراسات والبحوث التي يحويها الكتاب تعبر عن آراء كتابها لا عن رأي المركز.

المسبار

مركز المسبار للدراسات والبحوث
Al Mesbar Studies & Research Centre

كتاب شهري يصدر عن مركز
المسبار للدراسات والبحوث

رئيس المركز
تركي بن عبدالله الدخيل

رئيس التحرير
منصور النقيدان

هيئة تحرير الكتاب:
د. رشيد الخيون
أ.د. محمد الحداد
عبدالله حميد الدين
عمر البشير الترابي
د. ريتا فرج
إبراهيم أمين نمر

الموقع على الإنترنت:
www.almesbar.net

المراسلات البريدية:
ص.ب: 333577
دبي.
الإمارات العربية المتحدة

للاشتراك
هاتف: 4774 380 4 971+
فاكس: 5977 380 4 971+

بريد إلكتروني:
info@almesbar.net

تقديم 7

أوروبا ومسلموها: قضية أمنية أم مراجعة لقواعد التأسيس؟
محمد الحدّاد 13
المثال الأوّل: دور العبادة 15
المثال الثاني: التعليم الديني 15
المثال الثالث: الجمعيات الدينية 15
النظام الأمني الأوروبي 16
من تريفي إلى شينغان 18
الأزمة غير المسبوقة 21
مراجعات محدودة أم أزمة تأسيس؟ 23
في عدم كفاية الحلول الأمنية 25

الإمامة في أوروبا الغربية: خدمة دينية في سياق علماني- ليبرالي
محمد حصحاص ترجمة: عمر الأيوبي 33
الأئمة حماة محليين للدين والهوية 35
الإمامة في فرنسا 41
الخاتمة 49

الإسلام في أوروبا: سياسات متباينة
محمد شريف فرجاني ترجمة: جورج كتورة 53
التقاليد من القرون الوسطى إلى الآن 54
الإسلام في الغرب وإرث التقاليد الاستعمارية 56
وضعية الأديان والنماذج الاجتماعية السياسية 61
الإسلام في المشهد الفرنسي 63
الإسلام في أوروبا: الفيدرالية والجماعوية 64
ديانة «غربية» 69
الخاتمة 70

الإسلام في أوروبا: الدولة - المساجد - الحلال
محمد بشاري ترجمة: جورج كتورة 73
مأسسة الإسلام في البلدان الأوروبية 75
البلدان التي تعترف بـ«دين للدولة» 75
حيادية الدولة والاعتراف بالأديان 78
المسائل المثارة تبعاً لهذه المأسسة 83
المساجد الأوروبية تحت التأثير 83
مأسسة التعليم الخاص الإسلامي 85
السعودية والإسلام في أوروبا 90
تمويل الإسلام في أوروبا 92
الحلال في التشريعات الأوروبية 92
سوق الحلال في أوروبا 93
أنماط رقابة الحلال 94

المسبار

تدريس الدين الإسلامي في أوروبا: المقارنة كأسلوب للتدريس بمهنية واحتراف

معز الخلفاوي فهيمة ألفت ترجمة: بابكر الوكيل 97

تدريس الدين الإسلامي في ألمانيا 99

تدريس الإسلام في النمسا 101

تدريس مواد الدين الإسلامي في بريطانيا 106

التعليم المنزلي 108

التدريس الإضافي 109

مدارس تمولها الدولة 109

مدارس تمولها الجهات الخاصة 109

تدريس الإسلام في فرنسا 111

المدارس الكاثوليكية 112

الخاتمة 113

الهجرة إلى الاتحاد الأوروبي والعلاقة مع الآخر الأجنبي

حمزة صفوان ترجمة: عمر الأيوبي 117

الحقّ بالضيافة وواجب الضيافة 121

إنكار حقّ الضيافة 122

تفكيك الضيافة 127

الضيافة المنحرفة: حالة تقويم المصداقية 131

الخاتمة 135

انعزاليون وسياسيون وثوريون: أصول السلفية وتطوّرها في أوروبا

سمير أمغار ترجمة: عمر الأيوبي 137

السلفية الانعزالية: رفض للسياسة، ودعوة، ومذهبية 140

السلفية السياسية: الدولة الإسلامية والمواطنة 146

السلفية التسويغية 149

رابطة العالم الإسلامي 152

السلفية الثورية: التغيير بالعنف 154

الخاتمة 161

النماذج القديمة والجديدة: الإخوان المسلمون في أوروبا

فالنتينا كولومبو ترجمة: عمر الأيوبي 165

عنكبوت... أم نجمة بحر 167

فقه الأقليات 168

الإخوان المسلمون الخلّص والجهات المتفرّعة عنهم في أوروبا 173

استنتاجات 186

الخاتمة 189

الشخصيات الإسلامية المؤثرة في أوروبا: طارق رمضان أنموذجاً

محمد اللوزي 191

طارق رمضان: صناعة إخوانية محضة 192

الاستراتيجية الخماسية في الدعوة والاختراق 198

حقيقة التأثير بين الأمس واليوم 202

الراديكالية والموقف من العنف 208

الخاتمة 217

هل يوجد إسلام أوروبي؟ فرنسا أنموذجاً

حميد زناز 219

مكانة الدين في أوروبا 220

الخصوصية الفرنسية 221

فرنسة الإسلام أم أسلمة فرنسا؟ 223

أزمة الفردية 224

إلى أي حقوق إنسان ينحاز المسلم في أوروبا؟ 225

المساواة بين الجنسين 227

حرية العقيدة 229

الإسلاموية: انعزالية ثقافية 230

هل في الأفق اجتهاد فرنسي؟ 232

الخاتمة 236

الإسلاموفوبيا في فرنسا

روضة القدري ترجمة: جورج كتورة 239

أصول الإسلاموفوبيا 241

أنماط الإسلاموفوبيا ومعاداة الإسلام 244

الصراع ضد الإسلاموفوبيا: الخبرات، الحدود والتنافرات 250

الخاتمة 252

مكافحة الإرهاب في فرنسا: هواجس الأمن وتداعيات الإسلاموفوبيا

بوحنية قوي 257

مسلمو فرنسا.. الاغتراب والإسلاموفوبيا والكولونيالية 258

إعادة النظر في المقولات الأمنية الفرنسية 261

الإسلاموفوبيا وهواجس حماية الجمهورية 272

قراءة قانونية سياسية في قانون مكافحة الإرهاب.. رؤية مستقبلية 274

الخاتمة 281

الهجرة في فرنسا: ما بعد التفجيرات والحروب في الشرق الأوسط

حواس سنيجر ترجمة: عفيف عثمان 285

الهجرة في فرنسا والمتغيرات الأيديولوجية 286

الهجرات والأحزاب السياسية الفرنسية 292

الخاتمة 299

الكتاب: مسلمون في الحياة اليومية: تحقيق أوروبي حول المجادلة المحيطة بالإسلام

الكاتبة: نيلوفير غول (Nilüfer Göle) قراءة: ريتا فرج 303

الأوروبيون... قلق الهوية 305

حرب كلامية عن صلاة المسلمين والمساجد 308

الفن والمقدس والعنف 309

العلمانية الإرشادية والحجاب التفاخري 310

ماذا نفعل بالشريعة؟ وأساليب حياة الحلال 311

ذاكرة الكتاب 315

ببليوغرافيا 321

المشاركون في الكتاب 327

الإمامة في أوروبا الغربية: خدمة دينية في سياق علماني-ليبرالي(*)

محمد حصحاص(**)

ترجمة: عمر الأيوبي(***)

يقدّر عدد المسلمين في أوروبا بنحو (53) مليون نسمة، (16) مليون منهم في الاتحاد الأوروبي، ويتوقّع منتدى بيو الأمريكي للأبحاث لسنة 2015 أن يرتفع العدد إلى (10٪) من إجمالي السكان بحلول سنة 2050 [1]. تعود أصول هذا القسم المسلم من السكّان الأوروبيين إلى كل أنحاء العالم، وينحدر من مختلف الخلفيات العرقية واللغوية والثقافية والسياسية، تنوع ليس من السهل إدارته داخل أوروبا الغربية المنضوية تحت لواء الاتحاد الأوروبي المتعدد أيضاً على مختلف المستويات الاجتماعية، والثقافية، والسياسية، والاقتصادية.

(*) نقل النص من الإنجليزية.

(**) زميل أبحاث ما بعد الدكتوراه، قسم العلوم السياسية- جامعة لويس الدولية (روما).

(***) مترجم فلسطيني، حاصل على ماجستير في تاريخ الإسلام من الجامعة الأمريكية في بيروت.

(1) The Future of World Religions: Population Growth Projections, 2050-2010," Pew Forum, 2 April 2015, http://www.pewforum.org/02/04/2015/religious-projections2050-2010-/.

تلاقي هذين المستويين من التعدد، تعدد خارجي نازح وتعدد داخلي أصلي، يصعب من عمل مؤسسات الدولة على كل المستويات خصوصاً أن الوافدين الجدد ينتمون لديانة مختلفة، لها صورة سلبية في ذاكرة الأوروبي –عموماً–، ولمجتمعات غير ديمقراطية وغير ليبرالية.

ونظراً إلى أن للتراثين الدينيين تواريخ وسياسة مختلفة، ومفاهيم مختلفة للسلطة الدينية وتراتبيتها، وهذا هو الأهم في هذه الحالة، فقد أصبح وجود الإسلام الذي ليس لديه كنيسة (أي مؤسسة دينية)، بمعنى البابا في أوروبا الغربية الحديثة العلمانية، مثيراً للمشاكل. فليس للمسلمين «صوت واحد» يوحّدهم باعتبارهم مجتمعاً دينياً عندما يريدون التحدّث إلى الدولة أو معها في المسائل الخلافية ذات الصلة بالمجتمع. ولأن مجالس المجتمعات الإسلامية الحديثة النشأة (أنشئ معظمها في أعقاب 11 سبتمبر (أيلول) 2001) لم تتمكّن من جمع المجتمع المسلم المتنوّع تحت مظلّتها، لأسباب مختلفة، مثل الافتقار إلى الشرعية المكتسبة من جموع المؤمنين، أو بسبب قوّة الدعاة والعلماء المسلمين الدوليين مثل يوسف القرضاوي في الدوحة، أو عمرو خالد في مصر، وذاكر نايك في الهند، أو بسبب سيطرة إسلام البعثات. ومؤخراً، طرأ اهتمام متزايد بدراسة الأئمّة في أوروبا ودورهم في مكافحة الإرهاب والإسهام في الاندماج على وجه الخصوص. ويبدو أن الأئمّة اكتسبوا سلطة جديدة لم تكن لديهم سابقاً في التراتبية الإسلامية للسلطة الدينية، على الرغم من الافتقار إلى البنية الأساسية التي تتيح لهم بحق القيام بهذا الدور، سواء أكانت مؤسسية أم علمية.

تحاجج هذه الدراسة أن الإمامة في أوروبا الغربية تشهد حراكاً على مستوى خطابها الديني، وعلى مستوى علاقاتها مع مؤسسات الدولة والمجتمع. أي إنه على الرغم من ضعف التعليم على العموم في الدراسات الإسلامية الكلاسيكية والعلوم الاجتماعية الحديثة، فإن نسبة لا يستهان بها من الأئمّة الذين تمّت دراستهم يبذلون –على ما يبدو– جهداً لإبراز الرسائل الأخلاقية للإسلام، وهو دور يجعل منهم الحماة المحليّين للدين والهوية في أوساط المؤمنين. لكن يبدو أن هذا الاهتمام

الذي برز أخيراً حول الإمامة عبر دعوات لصنع الأئمّة في المؤسسات الوطنية، من أجل القيم الوطنية، وبأموال وطنية لا يجعل منها سلطة دينية إسلامية مستقلّة يمكن أن تقود المجتمع بمفردها وتتحدّث باسمه مؤسسياً (أي سياسياً) ودينياً (أي علمياً). وتستند هذه المقالة أولاً إلى إشارة موجزة وعامّة إلى الموقع التاريخي للأئمة والوظائف التي تضطلع بها الإمامة في الأدبيات الإسلامية وكتب الفقه، ودورهم باعتبارهم حماة محليّين للدين والهوية في جغرافيا سياسية معيّنة. ويشار بعد ذلك إلى انتقال الأئمة إلى أوروبا في أعقاب الحرب العالمية الثانية بحمولتهم الثقافية والسياسية أحياناً، قبل الإحالة إلى دراستين حديثتين – تنتمي لفرع الدراسات الاجتماعية والأنثروبولوجية- عن الأئمّة في فرنسا كأنموذج نحاول من خلاله فهم التطورات التي تشهدها. وتنتهي هذه الدراسة بطرح أسئلة نقدية تتحدّى الكثير مما ينتظر من الأئمة في عصر يتيح للأجيال الجديدة من المسلمين الأوروبيين الحصول على المعلومات والتعلّم الذاتي للدين على شبكة الإنترنت أو قنوات التلفزة العالمية.

الأئمة حماة محليين للدين والهوية

طالما اضطلع الإمام بدور مهمّ، ولكنه ليس دوراً قيادياً على الصعيدين المؤسسي أو العلمي. على المستوى المؤسسي، ينتمي الأئمة إلى المجتمع المحلّي، وهو جزء من مجتمع أوسع، ويقودونه. وهم يتّبعون المذهب الذي يعتنقه المجتمع العريض، وعندما يسألهم المواطنون المحليون عن مسائل تتصل بالدين، يشيرون إلى المذهب الذي يتبعه المجتمع العريض أو المنطقة الجغرافية. على سبيل المثال، يتبع الأئمة المغاربة أو الشمال أفريقيين المذهب المالكي لأنه المذهب المتّبع على مستوى الدولة، وقبل ذلك على مستوى الإمبراطورية أو السلطنة، مع الانفتاح على العرف. ومن الناحية العلمية، لم يكن هؤلاء الأئمة في حاجة إلى تعليم عالٍ في الكلّيات الإسلامية لممارسة الإمامة. وجلّ ما يحتاجون إليه معرفة أساسية للتعاليم والأخلاق الإسلامية، وحفظ قسم كبير من القرآن أو كلّه لتلاوته في الصلوات اليومية وفي شهر رمضان. والأئمة لا يصدرون الفتاوى، وإنما ينقلون فتاوى علماء المذهب الذي يتبعونه في الدولة أو المجتمع العريض. وهم ليسوا مفتين أو علماء، وهؤلاء يحظون بمكانة أكثر ارتفاعاً.

لكن في صدر الإسلام وفي أوجه، عمل بعض كبار العلماء، مثل مؤسسي المذاهب السنّية الأربعة (الإمام أبي حنيفة، والإمام مالك، والإمام الشافعي، والإمام أحمد بن حنبل) بمثابة مفتين وأئمة –أيضاً– لأنهم اكتسبوا شهرة علمية عظيمة أتاحت لهم شغل هذين المنصبين في آن معاً، بعد طلب من المجتمع أو وجهائه أو حكّامه في معظم الأحيان. ما تقدّم يشير بإيجاز إلى أن الأئمة في التراث الإسلامي، بصرف النظر عن أهمّيتهم في الشعائر الدينية اليومية وما يترتّب على ذلك من تقديم المشورة للمؤمنين في الشؤون الاجتماعية والشخصية، لا يحظون بمكانة مؤسسية أو علمية مرتفعة تتيح لهم التحدّث إلى المؤمنين على المستوى الوطني لأن مجال عملهم محلّي.

إن دراسة الأئمة والإمامة ظاهرة جديدة في المجتمعات الحديثة، بما في ذلك المجتمعات ذات الغالبية المسلمة، لسببين رئيسين[2]. **أولاً**: إن الكشف البسيط على محتويات كتب الدراسات الإسلامية الكلاسيكية لا يقودك إلى فصول أو فقرات مخصّصة لوظيفة الإمام وأدواره، بل تجد بدلاً من ذلك فصولاً مخصّصة للصلاة

(2) لا يركّز ما يسمى بـ «فقه الأقليات» على دور الأئمة وإنما على دور المساجد، والمفتين، وعلماء الإسلام، مما يعني أن الأئمة باعتبارهم فئة أو سلطة محلية شبه مستقلّة يُعتبرون مجرّد قنوات ناقلة للفكر والفقه الإسلامي وليسوا قادته أو مفكّريه الرئيسين. ولا تخصّص مطبوعات المجلس الأوروبي للفتوى والبحوث، الذي أنشأه في دبلن سنة 1997 العلماء الذين ينظّرون لهذا الفقه أمثال يوسف القرضاوي، رئيس المجلس، وطه جابر العلواني (1935–2016)، من مؤسسي المعهد العالمي للفكر الاسلامي بالولايات المتحدة، وأحد أبرز رواد فقه الأقليات، حيّزاً واسعاً لهذه الفئة من الأئمة ووظائفهم. غير أن هذا البحث لا يستقصي كتابات فقه الأقلّيات أو المجلس الأوروبي للفتوى والبحوث. بل يتفحّص بدلاً من ذلك مكان الأئمة داخل الدراسات الإسلامية انطلاقاً من معطيات علم الاجتماع والسوسيولوجيا للحصول على فهم للمتغيرات التي تطرأ على السلطة الدينية بشكل عام والإمامة بشكل خاص. يندرج هذا المقال ضمن مشروع كتاب حول الائمة في أوروبا الغربية سينشر سنة 2017، وهو ثمرة مؤتمر دولي نظمه صاحب المقال وآخرون بروما أيام 4–7 نوفمبر (تشرين الثاني) 2014. سيصدر الكتاب باللغة الانجليزية عن جامعة أمستردام للنشر. للاطلاع على المزيد حول موضوع الأئمة في أوروبا، وهو موضوع لا تعالجه إلا قليل من الدراسات إلى الآن، انظر:

Jean-Francois Husson, Training Imams in Europe: The Current Status (Brussels: King Baudouin Foundation, 2007); Willem B. Drees and Pieter Sjoerd van Kiningsveld, The Study of Religion and the Training of Muslim Clergy in Europe: Academic and Religious Freedom in the 21st Century (Leiden: Leiden University Press, 2008); Juan Ferreiro, Islam and State in the EU: Church-State Relationships, Reality of Islam, Imams Training Centres (Frankfurt and Vienna, Peter Lang, 2011); Ednan Aslan, and Zsófia Windisch, eds. The Training of Imams and Teachers for Islamic Education in Europe (Frankfurt and Vienna, Peter Lang, 2012); «The Education and Development of Religious Instruction and Institutions: 'Imam Training' in Europe,» Institute for Strategic Dialogue, Policy Planners' Network, March 2010, at: http://www.strategicdialogue.org/PPN_working_paper_-_Imam_Training.pdf; Dilwar Hussain and Henry Tuck, «The Education and Training of Islamic Faith Leaders in Europe: A Comparative Evaluation of Approaches in France and Germany,» Institute for Strategic Dialogue, February 2014, http://www.strategicdialogue.org/Imam_training_final.pdf; the author of this article co-organized a an international conference on the theme, «Imams in Western Europe – Authority, Training, and Institutional Challenges,» in Rome at LUISS Guido Carli University and John Cabot American University, 5-6-7 November 2014, and it is now a book project in progress, to be published in 2016; more at: http://imamsofthewest.com/.

وآداب المساجد وإدارتها، وتجد وسط ذلك بعض الفقرات أو الصفحات عن الأئمة. **ثانياً**: إنه ظاهرة حديثة بالنسبة لأوروبا لأنه نشأ في المجتمعات الغربية الليبرالية التي لم تتمكّن من تأطير الأقليات المسلمة، أو المواطنين الذين يدينون بالإسلام، في مؤسسات الدولة منذ الحرب العالمية الثانية. ويرجع ذلك –أيضاً– إلى أن السلطة الدينية الإسلامية لم تستطع التوصّل إلى إجماع بشأن الفهم الحديث للتراث الذي يتيح دمجها بسهولة في مؤسسات الدولة الحديثة والسياقات التعدّدية التي يشكّل المسلمون أقلّية فيها. وبالتالي برزت الإمامة وسيلة لحماية الدين والهوية، وحيّزاً لتجاوز السلطة، سواء أكانت دينية أم سياسية أم كليهما، وبناء الهويات على المستويين الدولي والمحلّي. ويحاول كل بلد في أوروبا اختيار «أئمة صالحين» باعتبارهم ممثّلين «للإسلام الرشيد» الذي يأخذ خصوصيات البلد في الحسبان.

في أعقاب الحرب العالمية الثانية المدمّرة، استخدمت أوروبا عمّالاً وافدين جاء معظمهم من المستعمرات السابقة المنتمية للعالم الإسلامي. وكان هؤلاء العمال المهاجرون ينتقلون إلى فضاء أوروبا العلماني الليبرالي الجديد، حاملين معهم الخلفية الاجتماعية السياسية والدينية المذكورة أعلاه. ومن ناحية التنظيم الديني المؤسسي وإدارة الشؤون المجتمعية، وجدت الجالية نفسها تعمل في أراضٍ جديدة حديثة ذات ممارسات تراثية.

كان المسلمون الذين يؤدّون شعائر دينهم، والذين ازدادت أعدادهم، لا سيما مع الجيل الثاني وما يسمّى انبعاث الإسلام في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين، يختارون مؤمناً يحظى بالتقدير ليصبح إماماً للصلاة، أو يسعون بعد ذلك إلى استقدام إمام من قريتهم أو مدينتهم في موطنهم. ولأن وضع التعليم الديني في العالم الإسلامي الواسع كان لا يزال في طور النشوء في حقبة ما بعد الاستعمار، فقد كان هؤلاء الأئمة المستقدمون ذوي تعليم محافظ وغير منفتحين على مؤسسات الدولة الحديثة أو المجتمع المتعدّد الثقافات، أو لم يحظوا بأي تعليم بصفتهم أئمة على الإطلاق، وإنما أشخاص عاديون حفظوا القرآن، أو قسماً منه، عن ظهر قلب في الكتّاب، لا المدارس الحديثة أو الجامعات، وكل ما يستطيعون القيام به إمامة

الصلوات باعتبارها مسؤولية إضافية يحمّلها المجتمع لهم، أو يضطلعون بها بإرادتهم تلبية لدعوة إلهية حسب قولهم. وقد أحدثت هذه الوظيفة غير المنتظمة تحدّيات وتغيّرات في الدور الذي كانوا يضطلعون به في المجتمعات ذات الغالبية المسلمة.

من ناحية أخرى، لم يكن تدخّل الدولة في الشؤون الدينية غائباً عن مجتمع المهاجرين. فقد أنشأت الدول المرسِلة في مرحلة ما بعد الاستعمار في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا وجنوب آسيا صيغها الخاصة من «إسلام البعثات» لتأكيد روابط الهوية والدين بين المهاجرين والبلد الأم، وتأمين المنافع الاقتصادية المتأتية من تحويلاتهم المالية من الخارج. وكان من الأهداف الأخرى لإسلام البعثات محاربة الإسلام العابر للهوية الوطنية، أو «الإسلام السياسي» الذي يهدّد شرعية السلطة السياسية لهذه البلدان في الوطن الأصل[3].

لم تكن الدول الأوروبية، في المقابل، مهتمّة بالمسألة الدينية في ذلك الوقت. فقد كان المهاجرون عمالاً ضيوفاً عليهم العودة بعد انتهاء عقود عملهم. لذا وجدت الدول الأوروبية أن «تعهد» لحكومات البلدان المرسلة وبلدان الخليج الغنية بالاهتمام بالاحتياجات الدينية للمهاجرين[4]. كما أن الشركات المستخدمة وفّرت في هذه الحالات غرفاً للصلاة للعمال لتتجنّب مطالبتهم بتحسين ظروفهم ورفع رواتبهم. وبعد ذلك عيّن العمّال -في الغالب- إماماً يؤمّ الصلاة ويؤدّي الشعائر المطلوبة. وكانت بعض الجماعات الإسلامية تعدّ خطب الجمعة عندما يتضح غياب الحكومة المرسلة والدولة المستضيفة[5].

اعتمدت الدول الأوروبية قوانين لتشديد الرقابة على الحركات السياسية المحافظة والراديكالية، والدعاة الذين يمكن أن تهدّد بياناتهم الأمن العامّ أو المصلحة

(3) Jonathan Laurence, The Emancipation of Europe's Muslims: The State's Role in Minority Integration (Princeton: Princeton University Press, 2012) 42.

(4) Jonathan Laurence, «Managing transnational Islam: Muslims and the State in Western Europe» in Immigration and the Transformation of Europe, Craig Parsons and Timothy Smeeding, eds., (Cambridge: Cambridge UP, 2006) 251-173.

(5) Gilles Kepel, Les banlieus de l'Islam: Naissance d'une religion en France (Paris: Seuil, 1987) 145-153.

العامّة، وبعض قيم الحرّية والمساواة. وخلال عملية «ترويض الأئمّة»، أبعدت فرنسا مثلاً (12) إماماً سنة 2004، بعضهم لأنهم لم يُدينوا تعدّد الزوجات أو ممارسة ضرب الأزواج لزوجاتهم. وفي أعقاب تفجيرات 7 يوليو (تموز) 2005 في لندن، أدرجت بريطانيا نحو (50) إماماً للإبعاد بسبب تصريحاتهم التي هدّدت الأمن العامّ. وبما أن ذلك يخالف معاهدة الاتحاد الأوروبي التي لا تُجيز إبعاد المشتبه بأنهم مجرمون إلى بلدان تستخدم فيها أجهزة الأمن والاستخبارات المحلية التعذيب، فقد وقّعت الحكومة البريطانية عقوداً مع بعض الحكومات الشرق أوسطية للتعهّد بالمعاملة الإنسانية للموقوفين عند ترحيلهم إلى أوطانهم[6]. وفي 2007، جاء في تقرير طلبته المفوّضية الأوروبية (المديرية العامّة للعدالة والحرّية والأمن)، وأعدّه معهد كينجز كوليدج (Kings College) في لندن، أن «الأئمّة المتشددين» لم يعودوا أقطاب الراديكالية، وشدّد على بروز جماعات مقاتلة إسلامية جديدة تعمل على التجنيد من طريق الإنترنت على وجه الخصوص[7]. وقد فتحت هذه الحقيقة المتعلّقة بوسائط الإعلام الجديدة التي تعمل على الإنترنت «فضاءات جديدة للخلافات الدينية، حيث يمكن أن يعترض الجمهور العريض على المصادر التقليدية للسلطة»[8]. وينطبق الأمر عندما تواجه هذه السلطة الدينية تحدّياً من المتحمّسين الدينيين في الشتات، كما هي الحال -خصوصاً- مع الشبّان المسلمين في «الغرب»، لا سيما في أوروبا حيث يُعاد تفسير الإسلام وتراثه ويشرّب بمعانٍ جديدة حسب السياق الأوروبي[9]. ومع أن عدداً لا يستهان به من الأعمال السوسيولوجية والأنثروبولوجية والنظرية قرأت مثل هذا التحدّي للسلطة الإسلامية الكلاسيكية من منظورات تقدّمية، ومنحته معاني

(6) Yvonne Yazbeck Haddad and Michael J. Balz, «Taming the Imams: European Governments and Islamic Preachers since 9/11,» Islam and Christian-Muslim Relations, 19:2, 2215-235 .

(7) Recruitment and Mobilization for the Islamist Militant Movement in Europe, EU Commission DG-Justice, Freedom and Security, and King's College London, 2007, at: http://ec.europa.eu/home-affairs/doc_centre/terrorism/docs/ec _radicalisation_study_on_mobilisation_tactics_en.pdf .

(8) Peter Mandaville, «Digital Islam: Changing the Boundaries of Religious Knowledge?» https://openaccess.leidenuniv.nl/bitstream/handle/1887/17137/ISIM_2_Digital_Islam-Changing_the_Boundaries_of_Religious_Knowledge.pdf?sequence=1

(9) مرجع سابق:
Mandeville, «Reimagining Islam in Diaspora: The Politics of Mediated Community.

تدافع عن فكرة إضفاء السمة الأوروبية على الإسلام وأن الإسلام «محلّي»[10]، فإن بعض الحوادث المأسوية داخل أوروبا فسّرت مثل هذا الاستيلاء الجديد على السلطة الدينية تفسيراً رجعياً أو سلبياً، أي إن السلطة الدينية التقليدية يمكن أن تُمنح معاني مختلفة، أحدها يمكن أن يتسم بعنف راديكالي. ويتجلّى ذلك بإنشاء تنظيم «داعش» في يونيو (حزيران) 2014 المتعطّش للدماء، الذي التحق به عدد كبير من المقاتلين الأجانب من جميع أنحاء العالم، بما في ذلك أوروبا. وتتحدّث الإحصاءات عن ألف وخمسمئة (1500) مسلم أوروبي من بين نحو أحد عشر ألف (11.000) مقاتل أجنبي، ويشمل هؤلاء نساء ومراهقين ومسلمين بالمولد ومعتنقين جدد للإسلام[11].

ثمة حوادث عنيفة حديثة، مثل قتل أربعة أشخاص في متحف يهودي في 24 مايو (أيار) 2014 في بروكسل على يدي مواطن فرنسي (مهدي نيموش) الذي أمضى السنة الأخيرة مقاتلاً في سوريا، ومجزرة صحافيي شارلي إيبدو في 7 يناير (كانون الثاني) 2015 في باريس، التي ارتكبها الأخوان كواشي المنتميان إلى شبكة القاعدة في اليمن، وهي تجسّد التوجّهات المحتملة للمعاني الجديدة التي يمكن أن يتخذها الدين في عصر «الإسلام الرقمي». ولمواجهة مثل هذا التحدّي، اجتمع علماء دين يحظون بشهرة عالمية لإدانة العنف باسم الدين، وإساءة استعمال الإعلانات والبيانات في هذا الخصوص، مثلما فعل نحو (125) عالماً مسلماً لإدانة نشأة تنظيم «داعش» باعتباره غير إسلامي ومناهض لمبادئ الإسلام[12]. وخرج قادة دينيون مسلمون على المستويات الدولية والوطنية والمحلية للتحدّث ضدّ مثل هذه الاعتداءات[13]. وخرج الأئمة أنفسهم «لاسترداد الإنترنت» من الجهاديين العنيفين[14]. كما خرجت

(10) Stephano Allievi, «The International Dimension,» in Brigitte Maréchal, et al., eds., Muslims in the Enlarged Europe: Religion and Society (Leiden and Boston: Brill, 2003) 449-488.

(11) Saniel Byman and Jeremy Shapiro «Be a Little Afraid: The Threat of Terrorism from Western Foreign Fighters in Syria and Iraq,» Foreign Policy at Brookings, Policy Paper N. 34, 11/2014 http://www.brookings.edu/~/media/research/files/papers/2014/11/western-foreign-fighters-in-syria-and-iraq-byman-shapiro/be-afraid--web.pdf

(12) «Open Letter to al-Baghdadi and to the Fighters and Followers of the Self-Declared «Islamic State»,» 19 September 2014, http://www.lettertobaghdadi.com/

(13) Carol Kuruvilla and Antonia Blumberg, «Muslims around the World Condemn Charlie Hebdo Attack,» 07/01/2015. http://www.huffingtonpost.com/2015/01/07/muslims-respond-charlie-hebdo_n_6429710.html

(14) Caroline Wyatt, «Imams try to ‹Reclaim the Internet› with Haqiqah Magazine,» 27/03/2015, http://www.

المرشدات الدينيات –أيضاً– لا لتحدّي الجهاديين العنيفين فحسب، وإنما السلطة الدينية المحافظة المعتدلة التي لا تسمح لهم بإمامة الصلاة[15]. وبرز تحدٍّ آخر من الأئمة المثليين الذين يحاولون تقديم ما يصفونه بالاحتياجات الروحية التي لا يجدها المسلمون المثليون من الذكور والإناث، وثنائيي الجنس، ومغايري الهوية الجنسية وسط مجتمع المؤمنين العريض[16].

الإمامة في فرنسا

تبقى فرنسا، بسكّانها الذين يضمّون نحو (5) ملايين مسلم، وقانون فصل الدين عن الدولة لسنة 1905، حالة مثيرة للاهتمام عن كيفية تطوّر الإمامة. ويضمّ البلد (1555) مسجداً تقريباً و(2147) مصلّى (بعضها مساجد)، و(1300) إمام. وبالنظر إلى قانون سنة 1905، فإن الدولة لا تستطيع تمويل المؤسسات الدينية، لكنها تستطيع حماية تراثها الثقافي ومبانيها وتوفير رجال الدين في مؤسسات الدولة. وتعدّ منطقة «ألزاس موزل» مستثناة من قانون سنة 1905 لأنها لم تكن تخضع للولاية الفرنسية في وقت اعتماد القانون. ولا يمكن حسب هذا القانون أن تمنح المدارس والجامعات العامّة أسماء دينية، مثل «الدراسات الإسلامية»، و«اللاهوت»، و«التعليم الديني» لاقسامها الدراسية والبحثية. لكن توجد كلية مستقلّة لأصول الدين الإسلامي في ستراسبورغ، لأنها تقع في منطقة ألزاس موزل المستثناة[17]. لذا فإن شؤون الجالية الإسلامية تعتمد بمعظمها على التبرّعات المحلية والمحسنين الأجانب. ومع تزايد حوادث الاحتجاج المحلية المختلفة والإرهاب الدولي، بدأ تعليم الأئمة بمثابة أولوية في

bbc.com/news/uk-32078681

(15) Khaled Abou El Fadl, «On Women Leading Prayer,» 20/09/2015, http://www.scholarofthehouse.org/onwolepr.html; Kathleen McLaughlin, «A Mosque of Their Own,» ChinaFile, 18/09/ 2012, http://www.chinafile.com/mosque-their-own; «Woman Leads US Muslims to Prayer,» 18/03/2005, http://news.bbc.co.uk/2/hi/americas/4361931.stm; Jerome Taylor, «First Woman to Lead Friday Prayers in UK,» 10/06/15, http://www.independent.co.uk/news/uk/home-news/first-woman-to-lead-friday-prayers-in-uk-1996228.html

(16) Afdhere Jama, «Five Imams Who Are Openly Gay,» 20/01/2015, http://islamandhomosexuality.com/5-imams-openly-gay/; Azmat Khan and Amina Waheed, «Meet America's first openly gay imam,» 20/12/2013, http://america.aljazeera.com/watch/shows/america-tonight/america-tonight-blog/2013/12/20/meet-america-s-firstopenlygayimam.html

(17) Dilwar and Tuck, «The Education and Training of Islamic Faith Leaders in Europe: A Comparative Evaluation of Approaches in France and Germany,» 5.

العشر أو الخمس عشرة سنة الأخيرة لتنظيم الشؤون الدينية للأقلية المسلمة، لكن يبدو أن العوائق المؤسساتية، بالإضافة إلى الافتقار إلى الدعم المالي، تسهم في إبقاء مجال الإمامة في مراحله التمهيدية يواجه خلالها مختلف التحدّيات التي تحاول هذه المقالة تقديمها وتقويمها.

باختصار، تقدّم المؤسسات الرئيسة التالية التعليم الأكاديمي والشهادات للطلاب المقدّر لهم أن يصبحوا أئمة وقادة للمجتمع في المستقبل بفرنسا: معهد الدراسات الإسلامية الفرنسية (IFESI)، والمعهد الأوروبي للعلوم الإنسانية (IESH)، ومركز الشاطبي، ومركز البحوث الإسلامية (CERSI) وهو مركز تعليمي يرتبط بمسجد باريس الكبير، والكلية المستقلة لأصول الدين في ستراسبورغ منذ سنة 2012، وتموّلها مؤسسة الشؤون الدينية التركية وتعتمدها جامعة إسطنبول التي تعترف بمقرّراتها وشهاداتها[18]. وفي ما يلي نلقي نظرة على النتائج الميدانية في عملين مهمين.

خرج عملان في الأنثروبولوجيا الاجتماعية عام 2013 وهما نتاج ست سنوات من العمل الميداني، دراسة الباحث الفرنسي في علم الاجتماع رومان سيز (Romain Sèze) «أن تكون إماماً في فرنسا» (Être imam en France) ودراسة الباحثة الفرنسية سولين جوانو (Solenne Jouanneau) «الأئمة في فرنسا» (Les Imams en France)[19]. وتبرز نتائجهما مكانة الإمام، وتصوّر التحوّل الذي يشهده منصبه الديني، أي السلطة الدينية المتنامية. وسأوجز النتائج في ثلاث نقاط مرجعية:

أ) تدنّي تعليم الأئمة ومكانتهم الاجتماعية والاقتصادية يسهم في جعلهم

(18) نفسه، 6-7.

(19) Romain Sèze, Être imam en France: Transformation du « clergé » musulman en contexte minoritaire [Being an Imam in France : Transfromation of the Muslim Clergy in a Minority Context], preface Olivier Roy (Paris : CERF, 2013) pp. 258; Solenne Jouanneau, Les Imams en France: Une autorité religieuse sous contrôle [Imams in France : A Religious Authority under Control] (Marseille: Agone, 2013) pp. 528. Shortened titles in English will be used subsequently.

معتمدين على معرفة العلماء:

أولاً: هناك ثمانية من ثلاثين إماماً أجرى «سيز» مقابلات معهم ينطبق عليهم ما أسماه «الإمام العامل»، وهم من مستوى تعليمي متدنٍّ جداً أو من دون تعليم على الإطلاق[20]. وهذا الإمام يطلبه مجتمع العمّال كي يؤمّ الصلاة لأنه تقيّ، أو يحفظ بعض القرآن. ويماثل «الإمام العامل» في عمل سيز تصنيف (جوانو) للإمام المحلّي غير المرئي[21].

ثانياً: يوجد لدى ثمانية عشر من ثلاثين إماماً خلفية تعليمية دينية، درسوها في بلدان المنشأ في العالم الإسلامي، ولم يسافر هؤلاء إلى أوروبا ليكونوا أئمّة لكنهم وجدوا أنفسهم يكسبون معيشتهم منها، إذ ليس لديهم خيارات أخرى. وغالباً ما يكون هؤلاء أئمّة أكثر ثقة وحضوراً ومعرفة، وبالتالي يكتسبون مزيداً من الاحترام في مجتمعاتهم. وبمرور الوقت يجدون طريقهم ليصبحوا أئمة في المساجد الكبرى بالمدن الكبرى. وهذا النوع من الأئمّة هو ما تسميه (جوانو) بـ «إمام الضاحية أو الحي» لأنه يبدأ عمله في الحي الذي يعيش فيه أو الحي الذي يدعوه للإمامة لثقته فيه ومعرفته الدينية[22].

ثالثاً: واحد فقط من بين ثلاثين إماماً حاصل على دبلوم تعليمي بمثابة إمام في فرنسا[23].

أما بشأن المكانة الاجتماعية والاقتصادية للأئمة، فإن الدولة لا تموّلهم، ولا يحصلون على رواتب منها. ولأن الأئمة يعتمدون على بلدانهم الأصلية والجمعيات الأهلية في معيشتهم، فإنهم يعانون من ظروف اقتصادية سيّئة، وكثير منهم لا يتمتّعون بتأمين صحّي. وذلك يؤثّر على موقعهم الاجتماعي، فلا أحد يريد أن يتعلّم

(20) Sèze, Being an Imam in France, 39.

(21) Jouanneau, Imams in France, 25.

(22) نفسه، 69.

(23) Sèze, Being an Imam in France, 75.

ليصبح إماماً عاطلاً عن العمل أو يتقاضى أجراً هزيلاً[24]، بمن فيهم الطلاب الملتحقون ببرامج تعليم الأئمة التي حاولت الدولة تقديمها أخيراً بالتعاون مع كلية أصول الدين الإسلامي في ستراسبورغ. ويفسّر ذلك –أيضاً– الافتقار إلى الأئمة والقيمين الدينيين في الجيش والسجون والمستشفيات والمدارس[25]. ويعيش هذا الوضع الاقتصادي الهش الأئمة الذين ينحدرون من أصول مغربية على وجه الخصوص، لأنهم لم يدخلوا فرنسا لأداء هذه الوظيفة، وإنما انتهى بهم الحال إلى أدائها بسبب حاجة المجتمع وحاجتهم إلى عمل ولو بأجر منخفض، خلافاً لنظرائهم الأتراك والجزائريين الذين غالباً ما تكون أوضاعهم أفضل وقانونية، بالنظر إلى الاتفاقيات التي عقدتها دولهم مع فرنسا بشأن استقدام الأئمة[26]. عموماً، فإن تدنّي مستوى تعليم الأئمة الديني والعام، إلى جانب الظروف الاجتماعية والاقتصادية الصعبة التي تميز عدداً مهماً من الأقلية المسلمة، يسهم في جعلهم معتمدين على العلماء من الناحية العلمية الدينية، وتلك هي الوظيفة الذي شغلوها تاريخياً في سلم الطبقية العلمية وما تمثله من سلطة معرفية. في هذه الظروف، يبقى الإمام، على الرغم من سلطته المحلية، تابعاً لسلطتين مختلفتين، الأولى، دينية يمثلها العلماء والثانية سياسية تمثلها السلطة الحاكمة.

ب) السياسة وبناء «الإمام الصالح» من قبل الدولة: توصّل عمل (جوانو) مع نحو ثلاثين إماماً ومسجداً في شرق فرنسا وجنوبها إلى خلاصتين رئيستين، إحداهما نتركها إلى حين تناول السلطة الدينية الجديدة للأئمة (نشرحها في النقطة التالية). ومن خلال اطلاعها على عديد من محفوظات الدولة وبياناتها، ووثائق الشرطة في البلديات، وجدت أن السلطات الفرنسية تدخّلت في الشؤون الداخلية للمجتمع المسلم. على سبيل المثال، كان للسلطات الفرنسية دور في اختيار الأئمة الذين يرسلون إلى أراضيها، في أعقاب الاتفاقات التي وقّعتها لتلك الغاية مع السلطات التركية

(24) نفسه، ص88.

(25) نفسه، 122.

(26) نفسه، ص47؛ Jouanneau, Imams in France, 296, 310, 315.

والجزائرية. وذلك ما تسمّيه (جوانو) «الأئمة القنصليون» [consular imams]، أو ما تسمّيه السلطات الفرنسية «الأئمة الصالحون»[good imams][27]. وتدخّلت السلطات الفرنسية –أيضاً– بتوقيع اتفاقات مع جامعتين للدولة لتعليم الأئمة، ولم يحقّق ذلك إلاّ نتائج محدودة لأن الهيئات التمثيلية الإسلامية قاطعتهم أو لم تمنحهم ثقتها، وكان لا بدّ من إغلاق بعض هذه البرامج في النهاية، بسبب نقص التمويل على ما يزعم[28]. الأمر الرئيس الذي يمكن استخلاصه –هنا– أن السلطات الفرنسية التي لم تستطع الوصول الى ثقة أكبر بين مواطنيها المسلمين وممثليهم، تعتمد على السلطات العربية الإسلامية في استيراد «الأئمة الصالحين» الذين يفهمون موقعهم في مجتمع علماني ليبرالي، دون التدخل في الشؤون السياسية أو القضايا الوطنية أو الجيوسياسية الخارجية.

ج) دور الإمام كصانع لهوية المجتمع المحلي للمؤمنين في مجتمع ليبرالي متعدّد الثقافات: يمكن استخلاص ثلاث نتائج رئيسة في ضوء العملين:

أولاً: من الناحية المؤسساتية، يشارك الإمام في إدارة المجتمع المحلي للمؤمنين كـ «رمزٍ لهويّته» الدينية والثقافية.

ثانياً: من الناحية الاجتماعية، الإمام «قريب» من المجتمع و«يتفاعل» معه.

ثالثاً: هو «داعية أخلاق انتقائي» من الناحية الدينية.

رابعاً: الإمام من الناحية المؤسساتية لا يقود المجتمع المحلي بمفرده، وإنما يشارك في إدارته مع مدير المسجد، أو رئيس الجمعية الثقافية الإسلامية المسؤولة عن المصلّى. وبالنظر إلى أن معظم الأئمة يأتون من بلدان ذات غالبية مسلمة، فإن بعضهم في المجتمعات الصغيرة يتمتعون بمستوى تعليمي متواضع، و/أو لا يتحدثون لغة مجتمع الأغلبية أو يتحدّثونها نسبياً فقط. وتالياً فإنهم غير قادرين على النهوض

(27) Jouanneau, Imams in France, 307.

(28) المرجع نفسه، ص310.315.

بدور الناطق الرسمي للمجتمع المحلي مع السلطات الفرنسية في القضايا القانونية، أو مع الطوائف الدينية الأخرى من أجل الحوار الديني أو الأنشطة الاجتماعية المدنية، أو مع وسائل الإعلام التي تسعى وراء السلطات الدينية للوقوف على رأيها بشأن بعض القضايا التي تهمّ المسلمين وسائر المجتمع. ولا يستطيع «الإمام المحلي غير المرئي» وفقاً لتصنيف (جوانو)، أو «الإمام العامل» وفقاً لتصنيف (سيز)، أداء دور المحاور لتمثيل مجتمعه المحلي، فغالباً ما يقف مستواه التعليمي عائقاً. بل إن مدير المسجد أو مدير الجمعية هو الذي يكون على قدر عالٍ من التعليم في الغالب، ويقوم بمهامّ الاتصالات الخارجية.

كما أن الإمام أصبح الرمز الثقافي للمجتمع المحلي. فهو يؤمّ الصلوات، ويخطب أيام الجمعة، وفي العيدين، ويؤمّ الجنازات. ويقوم بدور توفيقي في الزواج، إذ إنه يعرف المجتمع المحلي ويساعد المؤمنين في إيجاد شركاء الزواج. ويتدخّل – أيضاً– في حل الخلافات العائلية أو حالات الطلاق.

والأهم من ذلك أن الإمام اكتسب أدواراً جديدة ذات علاقة بالشعور بالهوية الجماعية أكثر منها بالعقيدة الدينية. ومن الأمثلة على ذلك مراسم الزواج، حيث ينظّم عدد من الأسر اليوم جزءاً من حفل الزواج في المسجد، وبحضور الإمام الذي يقرأ سورة الفاتحة ويبارك الزواج بعد الإجازة والتوثيق القانونيين المدنيين. وتجدر الإشارة إلى أن الزواج الإسلامي مدني بطبعه –وليس كالزواج المسيحي الكاثوليكي مثلا– ولا يتطلب وجود الإمام، وإنما يكفي حضور موثق قانوني أو مأذون فحسب[29].

من الناحية الاجتماعية، يتفاعل «الإمام المثقّف» مع جماعة المؤمنين، وتالياً فإنه قريب منها. ولاحظت جوانو، التي أمضت الوقت في مراقبة الإمام في جامع السلام (وهو اسم غير حقيقي اعطته الباحثة للمسجد الذي أجرت به بحثها)، أن هناك تفاعلاً في عمله. وهو لا يملي آراء في بعض المسائل التي يثيرها المجتمع المحلي. على سبيل المثال، عندما يسأل الإمام عن جواز التبنّي أو الاستماع للموسيقى في

(29) Sèze, Being an Imam in France, 115-119.

الإسلام، يقدّم وجهة النظر الإسلامية التقليدية ورأي التيار السائد، ويذكر الإباحة التي عبّر عنها العلماء الكلاسيكيون الآخرون، لكن السيدات المحاورات اللواتي طرحن عليه السؤال يخترن بأنفسهن في النهاية، وفي بعض الأحيان يخترن مسبقاً: مثلاً، تواصل إحداهن الدفاع عن التبنّي، وتستمع أخرى إلى الموسيقى على أي حال، على الرغم من أن الأخيرة تخفي خيارها بقولها إنها تشاهد برنامج ستار أكاديمي للمغنّين الشبّان الموهوبين العرب، وهو برنامج مرئي، والموسيقى فيه ثانوية وفقاً لرأيها، وعليه فهي جائزة. أي إنها تشدّد على المشاهدة بدلاً من الاستماع باعتبارها طريقة تجيز بها لنفسها مشاهدة برنامج ستار أكاديمي الموسيقي[30].

ثمة مثال آخر على العلاقة التفاعلية بين الإمام ومجتمعه، وهو يخص وضع خطّ فاصل في المسجد للفصل بين النساء والرجال. مع أن الإمام يرفض وضع هذا الخطّ الفاصل فإن كبار السنّ في مجتمعه المحلي وإداريي المسجد يرفضون اقتراحه ويقيمون الجدار الفاصل بين الجنسين[31]. وهناك مثال آخر يتعلّق بمعلّمة أخذت إجازة أمومة منذ بضع سنوات وتفكّر الآن في العودة إلى عملها، بعد أن منع الفرنسيون الحجاب، وتعتزم استشارة إمام المسجد. ومع ذلك فإنها تعبّر عن رأيها بأنها ربما لن تأخذ بما يقول، مفترضة أن يجيبها بأن غالبية العلماء تعتبر الحجاب إلزامياً للمرأة. وتلك إجابة يبدو أنها تعترض عليها مسبقاً. على الرغم من استشارتها للإمام فالسيدة لها رأيها الخاص وتبدو استشارتها إشارة إلى قدرتها على الاختيار اعتماداً على التواصل المستقل، ولكن التفاعلي مع سلطة دينية يمثلها الإمام[32].

من الناحية الدينية، ومع التركيز على القانون لأسباب متنوّعة، يجد الإمام نفسه «انتقائياً» و«داعية أخلاقي». فالإمام يعيش في مجتمع ليبرالي علماني، ويجب أن يتكيّف خطابه مع قانون البلد، إلى جانب تكيّفه –أيضاً– مع مستوى تديّن المؤمنين الذين يتحدّث إليهم. ويحمل ثلاثة أئمة من بين ثلاثين إماماً– قابلهم سيز– إجازة

(30) Jouanneau, Imams in France, 454.

(31) Jouanneau. Imams in France. : 471
لم يستطع سيز الوصول إلى النساء لكنه يقول إنهن ينظمن أنشطتهن تحت وصاية الرجال، Being an Imam in France، 114

(32) Jouanneau, Imams, 430.

تتيح لهم الفتوى، اثنتان أصدرتهما السلطات التركية وتعترف بهما، والثالثة تعود إلى إمام شيعي كان لديه شهرة علمية في لبنان قبل أن يحصل على الدكتوراه من جامعة السوربون، وهو يفتي ويصدر شهادات طلاق تعترف بها السلطات اللبنانية، وتستند إلى علمه الديني وشهرته[33]. وهؤلاء الأئمة المفتون، إلى جانب إمامين آخرين، مثل الشخصيتين العامّتين طارق أوبرو وحسن إكويسن، يتحدّثون عن ضرورة ممارسة التلفيق الذي مورس ويمارس في الفقه الاسلامي عامة؛ فالتلفيق يتغذى من نظريات فقهية مختلفة إذا اتبعت بكلّيتها من دون تلفيق فإنها ربما لا تتكيّف مع المجموعة الواسعة من الحالات الفردية والأسئلة التي يطرحها المؤمنون على الأئمّة في مجتمعات علمانية-ليبرالية[34].

التلفيق يعني أن المذهب الواحد ليس لديه إجابات منسجمة أو كافية عن المسائل التي يواجهها المؤمنون على اختلاف أعراقهم وأعمارهم وانتماءاتهم الجغرافية وجنسهم. لذا للمحافظة على التمسّك بالأصول والتكيّف مع السياق الليبرالي العلماني الجديد، يبدو الأئمة في حاجة إلى تقوية هذا النهج التكيّفي بالتشديد على بعض نواحي الأصول التي يعتبرونها أساسية على حساب أخرى يجعلها السياق تبدو مهجورة أو لا يمكن تطبيقها، وتالياً غير أساسية. ولذلك فإن معظم الأئمة الذين أجريت معهم مقابلات واستُمع إليهم يشدّدون في خطابهم عندما يتحدّثون عن المثلية الجنسية، على سبيل المثال، على أنها غير مقبولة دينياً، لكنهم يشدّدون مع ذلك على احترام الإنسان وسيادة القانون الذي لا بدّ أن يحترم[35]. أي أنهم يفرقون في خطابهم بين القانون الوضعي الذي يجب أن يتبع ويحترم وبين القانون الديني الذي أُعيد فهمه في سياق الحاضر العلماني والليبرالي. وهكذا يتم إضفاء صبغة الأخلاق الشرعية على بعض الاختيارات في ممارسات التدين[36]. بمعنى آخر،

(33) Sèze, Being an Imam in France,141, n. 2.

(34) المرجع السابق، 188-189، 217. وعن عمل أوبرو باعتباره إماماً فقيهاً، انظر:

Mohammed Hashas, «Tareq Oubrou's Geotheology: Sharia of the Minority and the Secularization of European Islamic Thought,» Journal of Muslim Minority Affairs, Vol. 34, N. 3, 2014, pp. 1-21.

(35) نفسه، ص192-193.

(36) نفسه، ص164، 183، 193، 212.

ينهج الأئمة خطاباً أخلاقياً يرون فيه أن الشريعة وأحكامها تعتبر مسؤولية أخلاقية بالأساس تستهدف الفرد وصلته الداخلية بالله؛ رعاية الأسرة وحمايتها، والبيئة أو العالم الخارجي الذي يجب على المؤمن أن يشارك فيه أخلاقياً وبمسؤولية دفاعاً عن العدالة الاجتماعية[37]. ويتم التشديد على القيم مثل الاحترام، والصفح، والتفاني في العمل باعتبارها قيماً إسلامية أساسية[38]. وهذا يعني أنه يتم التسليم لسلطة سياسية واحدة هي سلطة القانون الذي يمتثل له الجميع، أما الاختلاف العقدي وما يتبعه من قوانين دينية فهي خاصة بالمجموعة الدينية، وتصبح في السياق الأوروبي الجديد خطاباً أخلاقياً بالأساس وليس خطاباً سلطوياً يبحث عن سلطة تطبقه في المجتمع ذي الغالبية غير المسلمة.

غير أن الحال ليست كذلك مع كل الأئمة. فما زال هناك بعض الغموض الذي يعبّر عنه من لا يدعون صراحة إلى المساواة بين الجنسين، أو يتحدّثون عن المثلية الجنسية والإجهاض بازدراء[39]. ويبدو -عموماً- أن النبرة التي تسيطر على عظات الأئمة الثلاثين الذين تمت دراستها تصالحية، أي إنه مع أنها تستند إلى المقولات الأخروية وعالم الحساب والعقاب (الترهيب)، فإنها تستند -أيضاً- إلى أهمية الدنيا والحاضر عبر المشاركة الأخلاقية السالفة الذكر (الترهيب) -وتبين هذا المنهج في الخطاب خمسة وعشرين موعظة من مواعظ الأئمّة الثلاثين[40].

الخاتمة

هناك ثلاث نقاط رئيسة يجب تأكيدها من المحاججة التي تعرضها هذه الدراسة وتوضحها بالإشارة إلى حالة فرنسا. وتفتح هذه النقاط التأمّلية الباب أمام تحدّيات أساسية أخرى تواجه تدريب الأئمة و/أو مراقبتهم:

(37) نفسه، ص168-171.

(38) نفسه، ص48، 170.

(39) نفسه، ص164.

(40) نفسه، ص168.

أولاً: الإمامة ليست سلطة دينية مستقلّة ومنظمة يمكن أن تغيّر خطاب الإسلام في أوروبا، و/أو الإسلام الأوروبي، بهذا الاتجاه أو ذاك فقط، ما لم تُقدّم لها السلطة الدينية التي يمثلها العلماء والسلطة السياسية الرعاية الكافية. ولا يقلّل ذلك -بأي حال من الأحوال- من دورها الجوهري في نقل تعاليم الدين إلى مجتمع المؤمنين الذي تتصل به مباشرة، ومجتمع غير المؤمنين -أيضاً- لأن بعض الأئمّة يحضرون وينشطون في مبادرات الحوار بين الأديان، أو في القنوات الإعلامية باعتبارهم ممثّلين للمجتمع المحلي والدين بشكل عام. ولأن الإمامة ليست سلطة دينية مستقلّة فإنه يجب دراسة السلطات التي تؤثّر فيها، إذ إن الدول تتدخّل في الشؤون الدينية بصورة مباشرة وغير ماشرة. أي يجب البحث في حياد الدولة العلمانية الحديثة لمعرفة مقدار تأثيرها في الفاعلين الدينيين وسلطتهم الدينية. وفي الوقت نفسه، يجب -أيضاً- دراسة السلطة الدينية التي يتمسّك بها الإمام أو التي تؤثّر في فكره وعمله لفهم مصادرها، سواء أكانت فكرية أم سياسية. ويمكن أن يتيح ذلك للعلماء فهم القوى المحرّكة للدين في السياقات الحديثة، سواء أكانت تتأثّر بمؤسسات الدولة، أم الاتفاقات الثنائية بين البلدان الأوروبية والعربية الإسلامية، أم الحركات العابرة للحدود الوطنية، أم اتجاهات علمية أخرى. ويمكن أن يضفي مزيد من الدراسات المقارنة داخل أوروبا وخارجها مزيداً من الوضوح على ذلك لفهم اكثر للتغيرات التي تشهدها السلطة الدينية الاسلامية باوروبا ونشأة وتطور مجال الامامة.

ثانياً: إن رسالة الأخلاق التي أبرزتها هذه الدراسة باعتبارها الفكرة الرئيسة التي يُعنى الإمام بتقديمها في حاجة إلى مزيد من الدراسة. ويبدو أن الأخلاق أصبحت خطاباً سائداً بين علماء الدين والفلاسفة والعلماء والقيمين الدينيين المعاصرين، سواء أكانوا قد درسوا في جامعات إسلامية تقليدية أم حديثة. وربما يؤذن اعتماد الأئمّة الأوروبيين هذا الخطاب الإسلامي -على ما يبدو- بتحوّل تدريجي في أنموذج الإسلام الأوروبي «المعرفي»[41]. وبعبارة أخرى، هل هذه الرسالة

(41) عن ذلك انظر مقالتي،

«Is European Islam Experiencing an Ontological Revolution for an Epistemological Awakening?» American Journal of Social Sciences, Autumn 2014, pp. 14-49.

الأخلاقية التي تقترن بالأصول نهج متجذّر في الأصول نفسها وأعيد استرجاعه أو أنه تطوّر جديد يتطلّبه النصّ والسياق؟ ومن يؤثّر في هذا الاتجاه، السلطات الدينية الأوروبية، أم سلطات «الوطن» خارج أوروبا، أم تدخّل الدولة، أم كل هذه العوامل؟ وهل يدخل الأئمة تحوّلاً على العقيدة والفقه الإسلامي من مستوى أسفل المجتمع إلى أعلى، أم إنهم مجرّد ناقلين لقواه المحرّكة الداخلية فحسب؟ وما موقع المرشدات الدينيات و«الامامات» الجدد في هذه القوة المحرّكة؟

ثالثاً: إن دور الأئمة ورسالتهم الأخلاقية لا تتناقض مع المسائل المتعلّقة باندماج الشبّان المسلمين وإنشاء معانٍ هوياتية جديدة تشعرهم بإنتمائهم الديني والأوروبي في الوقت نفسه. وبهذا المعنى يصبح الدين وسيلة لانصهار مختلف الهويات من أجل تحسين الشعور بالمواطنة. لكن هل يستطيع الإمام في المسجد والمجتمع المحلي القيام بذلك بمفرده؟ ماذا عن المدارس ومناهجها التعليمية، ووسائل الإعلام، وتصويرها السلبي للإسلام وصورة المسلمين في أوروبا؟ هل فشل الإمام في نقل رسالته الأخلاقية إلى المقاتلين الأوروبيين الأجانب في سوريا والعراق؟ أو لا يُسمح له بالقيام بذلك، باعتبارها سلطة تابعة فقط لسلطتين أحدهما معرفية وأخرى سياسية خارج سلطته هو كما أسلفنا؟ تظل هذه الأسئلة بحاجة إلى دراسة لفهم الأدوار العميقة، والخفية أحياناً، التي تستطيع القيام بها سلطة دينية ثانوية، أو لا تستطيع. فالأئمة يعملون داخل جغرافيا محلية أو وطنية تتداخل فيها عوامل مختلفة، داخلية وخارجية.